(13) عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه

لا أحد يجهل أبا جهل ، فهو فرعون هذه الأمة ، وكبير معاندي قريش ومشركيها ، وجبار مكة الأكبر ، وزعيم الشرك الأول ، وهكذا كان ابنه عكرمة في أول حياته ، فقد سار على شاكلة [1] أبيه في العداء للإسلام والمسلمين ومحاربتهما وحياة عكرمة رضي الله عنه قبل إسلامه تختلف عن حياته بعد اسلامه ، فقبل اسلامه نستطيع أن نقول أنه ينطبق عليه قول الله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران : 34] أو المثل العربي القائل « من شابه أباه فما ظلم » فعكرمة ـ كما أسلفنا ـ نشأ في بيت زعيم الشرك الأكبر ، وتشرب مبادئ عداوة الإسلام والمسلمين ، ومحاربتهما بكل الطرق والوسائل ، وبكل ما أوتي من قوة ، إنه كغيره يدافع عن مصالح يخشى عليها الضياع ، وزعامة يخاف عليها الزوال . . وبعد إسلامه انعكس الوضع تماماً حتى أننا نستطيع أن نقول أنه ينطبق عليه قول الله تعالى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ [الروم : 19] .

ضرب أروع الأمثلة في البطولة والإيثار قبل أن يرزقه الله الشهادة ، وحياة كهذه لجديرة بأن نتعرف عليها وعلى صاحبها .

* * *

نشأ عكرمة ، وشب في مكة المكرمة ، وسمع كغيره عن الدين الجديد الذي جاء به محمد بن عبد الله ، وعن هؤلاء الذين اتبعوه ، وكغيره من أهل مكة شارك في جماعات تعذيب هؤلاء الذين أسلموا عساهم أن يعودوا إلى دين اللات والعُزّى [2] ولكن لم يعد أحد .

وبعد ثلاث عشرة سنة قضاها رسول الله ﷺ في مكة المكرمة داعيا إلى الله تعالى بإذنه ، أذن للمسلمين بالهجرة إلى المدينة المنورة ، فهاجروا إليها وتركوا أموالهم وديارهم بمكة ، وفي العام الثاني للهجرة كانت موقعة بدر الكبري فقد قاد أبو جهل عمرو بن هشام جيش المشركين ، وأقسم باللات والعزى ليقاتلن محمداً وأصحابه ، حتى لا يعودوا إلى مهاجمة قوافلهم مرة أخرى . وكان في مقدمة جيش المشركين عكرمة الذي شهد بعينيه مصرع أبيه الطاغية ، فازداد عداؤه للإسلام

(1) شاكلة : السجيّة والطبع .

(2) اللات والعزى : صنمان من أصنام العرب .

والمسلمين ، فقد كان العداء أولاً بسبب الخوف على المصالح ، أما الآن فقد أضيف إليه ثأر أبيه الذي يحب أن يأخذ به ، ولذلك فعند رجوع جيش مكة مهزوماً بعد أيام ذهب عكرمة مع بعض إخوانه إلى أبي سفيان بن حرب الذي آلت إليه زعامة مكة ، وكلموه مع أصحاب أموال القافلة التي كانت بسببها موقعة بدر ، فقالوا وهم يحرضون : يا معشر قريش ، إن محمداً قد قتل خياركم يوم بدر ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا .

فاتفقوا على الخروج نحو المدينة ، فكانت غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة ، وكان عكرمة قائد ميسرة الجيش .

وفي غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة خرج عكرمة مع جيش الأحزاب لاستئصال شأفة المسلمين [1] ، فوجدوا الخندق محفوراً أمامهم حول المدينة يمنع دخولهم ، فقالوا : والله إن هذه لمكيدة ماكانت العرب تكيدها . ولم يجدوا أمامهم إلا المحاصرة التي طالت و نفد صبر بعض شباب المشركين ومنهم عكرمة ، فقروا اقتحام الخندق من أضيق مكان فيه ، وانتهت هذه المغامرة بمقتل عمرو بن وُدّ أحد أبطال المشركين وشجعانهم على يد البطل المغوار [2] على بن أبي طالب ، ثمّ فرار عكرمة رضي الله عنه بعد أن ألقى رمحه .

وتمضي سنوات حتى يكون فتح مكة في العام الثامن للهجرة ، وهو عام فتح ونصر وبركة للمسلمين ولعكرمة رضي الله عنه أيضاً .

* * *

دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً ، لأن قريش رأت أنها لا قبل لها بحربه وحرب أصحابه ، ووقف أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه يعلن للناس أن رسول الله ﷺ جاء بعشرة آلاف مقاتل ، وأنه من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن اغلق عليه بابه فهو أمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فاستبشر أهل مكة بهذا الأمان إلا بعض نفر فيهم عكرمة وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وحماس بن قيس الذي قال لزوجته وهو خارج لقتال المسلمين : إني لأرجو أن أتيك ببعض أصحاب محمد خدماً .

---

(1) استئصال شأفة المسلمين : إبادتهم وإزالتهم تماماً .

(2) المغوار : المقاتل الشجاع ، كثير الغارات على الأعداء .

خرج هؤلاء ومن معهم من الشباب الطائش الذين لا يقدرون الأمور حق قدرها وتوجهوا إلى أحد نواحي مكة، وهناك في مكان يسمي « الخندمة » قابلهم خالد بن الوليد رضي الله عنه بفرسانه، فقاتلهم حتى أسروا منهم اثني عشر رجلاً، وفر عكرمة وصفوان وسهيل وحماس الذي دخل على زوجته وهو يقول : اغلقي عليّ الباب . فقالت له ساخرة : وأين ما كنت تعدني به من الخدم ؟ فقال لها :

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فر صفوان وفر عكرمة

واستقبلتنا بالسيوف المسلمة ... يقطعن كل ساعد وجمجمة

ضرباً فلا يُسمع إلا غمغمة [1] ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

وفر عكرمة رضي الله عنه إلى اليمن بعد أن علم أن رسول الله ﷺ أهدر دمه، لكثرة ايذائه، ولكن زوجته الوفيه أم حكيم بنت الحارث بن هشام ابنة عمه وكانت قد أسلمت، ذهبت إلى رسول الله ﷺ واستأمنت له، فأمّنه .

في أثناء ذلك كان عكرمة رضي الله عنه في طريقه إلى اليمن، وقد ركب إحدي السفن، فقال قائد السفينة ـ وكان رجلاً مسلماً ـ اخلصوا، فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً فسأل عكرمة رضي الله عنه : أي شيء أقول ؟ قال : قل لا إلا إلا الله، فقال عكرمة واعجباه ! فما هربت إلا من هذا فادركته زوجته على هذا النحو، ونادت عليه : يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس، وأبر الناس، وخير الناس، فلا تهلك نفسك، فعاد معها بعد أن علم أنها قد أستأمنت له رسول الله ﷺ .

***

وفي أثناء عودة عكرمة رضي الله عنه إلى مكة المكرمة، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت .

ولما دخل عكرمة رضي الله عنه على رسول الله ﷺ قال له : مرحباً بالراكب المهاجر . فسُر عكرمة رضي الله عنه سروراً عظيماً، ونوّر الله بصيرته، وأزال ما على عينيه من غشاوة وحل الإيمان على قلبه، فبادر النبي ﷺ بقوله : إن أم حكيم اخبرتني أنك قد أمنتني فأجابه : صدقت، فأنت آمن، فقال عكرمة رضي الله عنه : إلام تدعوا يا محمد . قال ﷺ :

(1) الغمغمة : أصوات غير مفهومة .

ادعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، وأن تقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، ثم أخذ يعد له خصال الإسلام .

فقال عكرمة رضي الله عنه : والله ما دعوت إلا إلى الحق ، وأمر حسن جميل ، وأنت والله أصدقنا حديثاً وأبرّنا براً ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فسُر بذلك رسول الله ﷺ ، ثم قال عكرمة : يا رسول الله ، علمني خير شيء أقوله . قال : تقول أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . فقال عكرمة رضي الله عنه : ثم ماذا ؟ قال : تقول ، أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم مجاهد مهاجر . فقال عكرمة رضي الله عنه ذلك .

ثم بشره رسول الله ﷺ قائلاً : يا عكرمة ، لا تسألني اليوم شيئاً أعطيته أحد إلا أعطيتكه . ولم يطلب عكرمة رضي الله عنه شيئاً من الدنيا ، إنما نظر في حياته السابقة ، وعلم مدى حقارتها ، ومدى ما ارتكبه في حق الإسلام ورسوله ورجاله ، ولذلك سأل النبي ﷺ أن يستغفر له كل عداوة عاداها له ، أو مسير سار فيه لحرب الإسلام ، أو موقع لقي فيه النبي ﷺ محارباً معادياً ، أو مقام قام فيه يريد إظهار الشرك ، أو أي كلام قاله في وجهه النبي ﷺ أو في غيبته . فدعا له النبي ﷺ : اللهم اغفر له كل عداوة عاداينها ، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك إطفاء نورك ، واغفر له ما نال مني من عرض في وجهي أو أنا غائب عنه . فتهلل وجه عكرمة رضي الله عنه بالبشر والسروروهو يقول : رضيت يارسول الله ، رضيت يا رسول الله . والله يا رسول الله لا أدع نفقة كنت أنفقتها في الصّد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله ، ولا قتالاً كنت أقاتله في الصد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله . . وتنقلب حياة عكرمة رضي الله عنه رأساً على عقب بعد إسلامه ، أو قد بدأت حياته الحقيقية مع الإسلام ، ودخول النور قلبه ، فهو الآن قد انضم إلى قافلة أهل الإيمان ، وأصبح جندياً من جنود الإسلام الشجعان ، وبطلاً من أبطاله البواسل .

***

ولأن عكرمة رضي الله عنه رجل فاضل ، ورأى فيه رسول الله ﷺ البر والتقوى والأمانة فقد استعمله على صدقات هوازن ، يأخذها من أغنيائهم ، ويردها على فقرائهم ، ونهى أصحابه أن يقولوا عكرمة بن أبي جهل ، بل عكرمة بن عمرو بن هشام .

بعد وفاة الرسول ﷺ ، وارتداد قبائل من العرب سيّر أبوبكر الصديق رضي الله عنه الجيوش لحربهم وإعادتهم إلى حديقة الإسلام ، فكان عكرمة قائداً لأحد الجيوش التي توجهت لقتال مسيلمة الكذاب ، ثم أرسله الصديق رضي الله عنه على رأس جيش لقتال أهل عمان الذين ارتدوا فكتب الله تعالى له النصر ، وبعد انتهاء حروب الردة سار عكرمة رضي الله عنه إلى بلاد الشام مجاهداً ، وقبل خروجه عسكر الجيش بالجرف[1] على مقربة من المدينة المنورة ، فذهب الصديق رضي الله عنه يستعرض الجيش ويتفقد أحواله ، فإذا هو بخباء[2] عظيم حوله ثمانية أفراس ، ورماح وسيوف ودرع ، فسار إليه ، فإذا هو خباء عكرمة رضي الله عنه إنه لم ينس عهده مع الله ورسوله أن ينفق في سبيل الله أضعاف ما كان ينفقه في الصد عن سبيل الله .

سلم عليه الصديق رضي الله عنه ، وعرض عليه المعونة من بيت المال ، فقال عكرمة رضي الله عنه : لا حاجة لي بها يا خليفة رسول الله إن معي ألف دينار .

واصل عكرمة رضي الله عنه جهاده في سبيل إعلاء كلمة الله حتى كانت معركة اليرموك بين المسلمين والروم ، وفيها أبلي عكرمة رضي الله عنه بلاءً حسناً قبل استشهاده ، بل أعطانا درساً في الشجاعة والإيثار قلما نجد له نظير .

***

اتسعت الفتوحات في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وتعددت اللقاءات بين جيوش المسلمين وجيوش الفرس والروم ، وإحدى هذه اللقاءات كانت موقعة اليرموك . وفي كل هذه الفتوحات والمواطن كان عكرمة رضي الله عنه الفارس البطل المجاهد الذي لم ينس عهده مع رسول الله ﷺ يوم أن وضع يده في يده ، وقال له : أشهد من حضر أني مسلم مجاهد مهاجر ، وكذلك لم ينس تعهده بأن يقاتل في سبيل الله أضعاف ما كان يقاتل في الصد عنه . .

بدأت معركة اليرموك ، وكان عكرمة رضي الله عنه قائداً لأحد سريا الجيش ، واشتد الكرب على المسلمين ، فقد كانت أعداد الروم تفوقهم بكثير ، وهنا ينزل عكرمة رضي الله عنه عن فرسه ، ويكسر غمد[3] سيفه ، ويتوغل في صفوف الأعداء يضرب

(1) الجرف : موضع على بعد ميلين من المدينة المنورة .
(2) الخباء : الخيمة من الصوف .
(3) الغمد : غلاف السيف .

ذات اليمين وذات اليسار ثم يعود إلى المسلمين فيقول له أحدهم مشفقاً عليه : اتق الله ، وارفق بنفسك ، فإن قتلت سيكون قتلك شديداً على المسلمين . فيقول عكرمة رضي الله عنه وهو يصيح : إليكم عني ، فقد كنت أجاهد بنفسي مع اللات والعزى فأبذلها لها أفأستبقيها الآن عن الله ورسوله ؟!! لا والله لايكون أبداً . ثم التفت إلى الروم وهو يقول : قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن ، وأفر منكم الآن .

ثم نادي في صفوف المسلمين : من يبايع على الموت ؟!

فخرجت كوكبة من الفرسان الأبطال وبايعوه ، منهم عمه الحارث بن هشام ، وابنه عمرو بن عكرمة ، وضرار بن الأزور ، وعيّاش بن أبي ربيعة ، واكتمل عددهم أربعمائة ، فانطلقوا يحصدون رقاب الروم ، مقبلين غير مدبرين حتى انتهت المعركة بنصر مؤزر(1) للمسلمين ، وسقط من بين شهداء المسلمين عكرمة وابنةعمرو وعمه الحارث وعياش بن ربيعة ، وفي الرمق الأخير مرّ عليهم أحد المسلمين فطلب منه الحارث بن هشام جرعة ماء يشربها فجاءة الرجل بالماء ، فلما قربه من فمه نظر إليه عكرمة ، فقال الحارث للرجل : ادفعه له فلما أخذه عكرمة رضي الله عنه وقربه من فمه نظر إليه عياش بن أبي ربيعة رضي الله عنه ، أو سهيل بن عمرو رضي الله عنه فقال عكرمة رضي الله عنه للرجل : ادفعه له ، فلما وصل الماء إليه كان قد مات ، فعاد الرجل بالماء إلى عكرمة ، فوجده قد مات ، فعاد به إلى الحارث ، فوجده قد مات أيضاً .

واستشهد الثلاثة ، وكل منهم يؤثر غيره بالماء على نفسه ، رضي الله عنهم أجمعين .

*** من فضائل عكرمة بن عمرو رضي الله عنه .**

(1) عن عكرمة بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ يوم جئته « **مرحبا بالراكب المهاجر** » رواه الترمذي .

* * *

(1) مؤزر : شديد وقوي .